صوت... فجأةً، كما لو أنّ سدادةً طارت، دَخَلَ ضجيجُ الكلام والصراخ أذني. والتفتَتْ أختي من بين جمع الناس كأنما نبّهها أحدٌ. بوجه معتادٍ على الكآبة والحزن قابلتْني، والتفتتْ كلُّ الوجوه إليّ. وجوهٌ لأصدقاء قدامى، ولأقارب لم أرهم منذ زمن بعيد، فيها تعبيرٌ واحدٌ يطفح انْشداهاً بمفاجأة كأنما تكمن خلف ظهري. كأنّ شيئاً يصعقهم مارّاً من خلالي، آتياً من ورائي، ذاهباً إلى عيونهم المفتوحة على وسعها في الدهشة. لو لم أكن في الحلم لَمَا انْجمع كلُّ هؤلاء في مكان واحد. ارتختْ يدُ أختي فهبط الطفلُ إلى فخذها وبدا معلّقاً بيدها كأنه سيسقط منها ما إنْ يتحرك أو تتحرك أصابعها. وبدأ وجهها ينْشحن بصدمة المفاجأة، وشفتاها ترتعشان بكلام عصيّ. كأنها قالت مرعوبةً: «أنتَ ميت». كانت لحظةً رهيبةً أن يعرِّفني صوتُها أو صوتُ الحلم بأنني ميت، وبأنّ هؤلاء الأصدقاء والأقارب حاضرون من أجل الجنازة. رأيتُ فمها يصرخ، بكل الشقاء الذي تعانيه، في وجهي: «عيبْ عليك.. وينْ رجولتك؟.. ما عاد عندي شيء أعطيك إياه.. خمس سنين وأنت ما تعرف الليل من النهار... وجهي ما عدتْ أعرف وينْ أودّيهْ... ما ظلْ حدا تعرفه ما له عليك دينْ.. منيْن أعطيك؟.. أنت أحقّ من أولادي؟!... أبيع أغْراض بيتي؟! أفتح أفْخاذي للناس؟! أكسب لك من لحمي لمشروبك؟! يا عيب الشومْ!! يا عيب الشومْ!!» وراحت تلطم وجهها، وفضاء البيت يملأه بكاءُ أطفالها الصامتُ بعيونهم التي تلاحق حركاتها المجنونة. بشعور المذْنِب انسحبتُ من أمامها، ونزلتُ الدرج وأنا أسمعها تهذي صارخة «أبيع عرضي؟!.. أجوّع أولادي؟!». وفي عمق الدرج كان صدى بكائها يفيض ويخرج من باب العمارة ليلاحقني نافذاً في سمعي كأنه يلتصق بي... سقط الطفل من يدها وناستْ بجسدها، وأجفانها تنْسدلُ على إغماءةٍ كالتي كانت تأتيها في طفولتها. رغبتُ في البكاء وفي ضمّ أختي إلى صدري، لكن إحساساً بحاجزٍ لا يُخترق، كالجدار، جعلني أقتنع تماماً أنني ميت...

كأني لفظت همساً في الوجوه المدهوشة: أنا ميت؟!.

الرقّة

من حكايات البغال

هزوان الوز

قال رئيس اللجنة بصوت عالٍ موجِّهاً كلامه إلى العاملين على آلات السَّحْب: لا تنسوا زيادة عشر أوراق، ودقِّقوا في الصفحة الأولى قبل وضع الأوراق في المغلَّف.

وأطلق أبو نبيه صيحته الدورية: بَدِلْ ماستر.

فعقّب أبو حسن: شباب! هَيْ امتحانات... الخَطْأة بِكَفْرة.

ثم توجَّه بكلامه نحو جاره أبي نبيه، العامِلِ مثله على آلة لِحام: رزق اللّه تلك الأيام، أتذكر؟.. لم تكن آلات اللِّحام هذه موجودة، ولا هذه المغلَّفات السوداء والبيضاء المصنوعة من النايلون، كانت عبارة عن مغلفات ورقية نُغْلقها بورق اللصق البنيّ.

قال أبو نبيه: وكيف لا أذكر! كنتَ أفضلَ وأسرعَ مَنْ يقوم بهذه العملية، كنا نلقبك بـ «الروبوت».

ـ الروبوت أصبح عاجزاً يا أبا نبيه، العمر له حقه، هي سنوات ثلاث ويصل القطار إلى محطة التقاعد.

ـ ما زلت شاباً يا أبا حسن.

ـ أيّ شباب، وهذا القلب المتعب؟ أجريتُ له عمليةً منذ أربع سنوات، ويومياً أتناول ما لا يقلّ عن ثماني حبّات من الدواء، ومع ذلك تنتابني أزمةٌ بين فترة وأخرى. صَدَقَ مَنْ قال إنّ الإنسان عندما يتجاوز عمرُه نمرةَ حذائه فإنه يدخل مرحلة البهدلة.

ـ طَوِّل بالك يا أبا حسن، انظرْ، غالبية العاملين على آلات السحب من الشباب، وحقِّ ربك عندي عزم أكثر منهم.

ثم توجَّه نحو العاملين على آلات السحب قائلاً بصوت عال: «هاتْ شغلْ... هاتْ شغلْ... هاتْ شغلْ وخذْ بَغْل...».

وأردف:

ـ شباب اليوم خروق، أُنظرْ، آلات السحب جميعُها إلكترونية، المطلوب فقط ضغطة زرّ، ومع ذلك لا تجد لدى أيٍّ منهم روحَ المبادرة، تمنيتُ ولو لمرة واحدة أن أشاهد أحدهم يُجري صيانة لآلته... وإذا حدث أيّ طارئ بسيط في الآلة ينادون: تعال يا أبا نبيه. وفي أكثر الأحيان تكون ورقة عالقة في الآلة، ولكنهم ليسوا على استعداد للقيام بهذه العملية البسيطة التي لا تستغرق أكثر من ثلاثين ثانية. أتذْكر آلات الرول الطباعية اليدوية التي كنا نعارك فيها ساعات طويلة، وكذلك أوراق الحرير؟ ورغم ذلك كنّا نطبع أسئلة امتحانات الشهادات العامة لكل طلاّب القُطر، وفي نهاية عملنا اليوميّ يكون الواحد منا وكأنه خارج للتوّ من بحيرة للحبر.

ـ لا تظلم الشباب يا أبا نبيه، الواحد منهم يقف خلف الآلة بمعدل ست عشرة ساعة عمل يومياً، بينما في تلك الأيام كنا نعمل من الساعة الثالثة وحتى الساعة العاشرة مساءً، ثم نعود إلى منازلنا لننام مع زوجاتنا وأطفالنا. نحن الآن مقطوعون عن العالم الخارجيّ، ولا يمكن أيّ شعاع من أشعة الشمس أن يخترق هذا القبو.

ـ هانَتْ يا أبا حسن... مضى ثلاثة عشر يوماً، وبقي سبعة وعشرون فقط.

ـ المهم أن تنتهي الامتحانات بخير، ولا تظهر أية أخطاء أو مشاكل كي نستطيع العودة بسلام إلى بيوتنا. هل تصدِّق... في ذلك العام الذي تم فيه تسريب الأسئلة لم أعرف النومَ لمدة أسبوعين؟

ـ ومن منا عرف النوم؟ ويا ليت الأمور انتهت عند معاقبة المسبِّبين. فبعدها اتخذ المسؤولون في الوزارة قرارهم بعزل لجنة طباعة الأسئلة مدة أربعين يوماً عن العالم الخارجيّ.

ـ ومنذ ذلك العام قررتُ عدم المشاركة في عمل هذه اللجنة. أعلم أنّ صحتي لا تساعدني على تحمّل السجن مع الأشغال الشاقة لمدة أربعين يوماً، والقضية قضية مبدإ، فإما أن يكون هذا الموظف ثقة أو لا يكون.

ـ يا صاحبي، التحقيقات أظهرتْ أنّ المسبِّبين من ضمن أعضاء اللجنة. هذه امتحانات ولا مجال للثقة، النفوس ضعيفة والاحتياط واجب.

ـ أتصدِّق بأني حتى الآن لم أفهم كيف أنّ عنصرين من اللجنة كانا وراء هذا الانتشار الكبير لعملية التسريب التي حصلتْ؟

ـ هذه ليست مهمتنا، الأجهزة الأمنية أجرت تحقيقاتها وتوصلتْ إلى تلك النتيجة. المهم أنك عدتَ للعمل في اللجنة بعد انقطاع ثماني سنوات.

ـ «سألوه ما الذي أحوجك إلى المرّ، قال: الأَمَرّ!» حياة صعبة وبنت كلب لا ترحم. ستة أفواه وأمهم، والأولاد كبروا وكبر همهم. أم حسن باعت مصاغها يومَ أجريتُ العملية، وحق ربك أخجل من نفسي عندما أنظر إلى يديها، أريد تعويضها ولكنْ مِنْ أين؟! وأُضطرّ لشراء بعض أدويتي أحياناً من دول عربية مجاورة بأسعار مضاعفة، وأصبحتُ محرَجاً أمام أهل خطيبة حسن؛ مضى على خطبتهما أكثر من عامين، أهلُها طيبون من طينتنا يريدون السترة، قالوا: «خذها ودعها تعش مع أولادك، وعندما يكرمك اللّه تبدأ بالعمار». أريد أن أعمِّر لهما غرفة ومنافع على السطح، وفي كل مرة أجمع قرشين للبدء بالعمار تنبع من تحت الأرض مصيبةٌ تبلع النقود. ناهيك عن رئيس البلدية الذي ينترنا الخطابات عن النضال والوطنية ويرقص ويدبك في المناسبات والأعياد، يريد خمسين ألفاً ليُغمض عينيْه عن مخالفة العمار. لا أدري... ربما كانت هذه الثلاثون ألفاً التي سأتقاضاها تعويضاً لعملي في اللجنة تساعدني في زواج حسن.

وفجأةً صدر صوت حادّ عن آلة أبي نبيه نتيجةً لانقطاع شريط اللِّحام. فتمتم: يلعن أختِك... هذا وقتك؟

عقّب أبو حسن: الآلات تعبتْ من ضغط العمل المتواصل، لا أعتقد أنها مصممة للتعرض إلى إجهاد كهذا.

تدخّل عدنان العامل على آلة السحب القريبة منهما، حين سقطتْ عبارةُ أبي حسن في مسامعه، سائلاً: وهل تم تصميمنا نحن لتحمُّل إجهادٍ كهذا؟

أجابه أبو نبيه: وما أدرانا؟ اسألْ والديك ماذا كان يدور بذهنهما في تلك الليلة! على كل حال أشهد بأنك مصنوعٌ من سبعة جلود مثل كرة التنس كي تتحمل الضرب.

قال عدنان: يا سيدي، العمل في هذه اللجنة يُثبت أنّ الإنسان لديه قدرة على التحمل أكثر من الآلات وكل أنواع الحيوانات.

قال أبو حسن: واللّه تعبت يا جماعة، أحس أنّ قلبي بدأ ينبض بسرعة...

قال أبو نبيه: ارتحْ يا أبا حسن... ارْتَحْ، ها قد وصل طبّاخنا جعيص، هذ يعني أنّ الغداء أصبح جاهزاً.

قال عدنان ساخراً: حرام عليكم الآلات، واللّه تعبتْ، يجب أن ترتاح...

وقف رئيس اللجنة وتوجه نحو الجميع قائلاً: كالعادة... سنتناول الغداء لمدة ربع ساعة، ثم يأخذ كلّ منا قيلولة لمدة ساعة وربع، وبعدها نعاود العمل.

تابع عدنان سخريته: افرحوا يا شباب... حان موعد الذهاب إلى المعْلف.

* * *

طق... طق... طق...

تلك هي النغمة التي كانت تملأ مستودع الورق، وذلك نتيجة ضرب الشباب لمواعين الورق بالجدار حتى يَسْهل عليهم نزعُ غلافها، ويقوم آخرون بنقلها بعرباتٍ لصفّها بجوار آلات السحب. كان على أعضاء اللجنة في كل يوم تجهيزُ ما يقارب من ألف ماعون. والجهد العضليّ الذي يتطلبه إنجازُ هذا العمل، والغبارُ الذي يملأ أنفَ كلٍّ منهم وحلقَه، كانا يجعلانه أصعب الأعمال بالنسبة إلى الجميع، وخاصةً الذين تجاوزوا مرحلة الشباب.

قال سعيد: من أكثر الأعمال التي تزعجني في هذه اللجنة فتحُ الورق والجلي.

قال خليل: اليوم دورك بالجلي؟... مبروك، كرمى لعيونك سأطلب من طبّاخنا جعيص أن تكون الوجبات جميعها دسمة.

وغنّى مقلِّداً السيدة أم كلثوم: «إجْلي... مِشْ حا اسألْ عليك!»...

قال عدنان: سعيد بك، ما زال عرضي ساري المفعول، عن كل دور جلي فقط خمسمائة ليرة... جاهز؟

قال سعيد: يجب أن تؤمِّن لنا الوزارة آلةً للجلي... وآلةً لفتح الورق...

سأله خليل: ألا تريد أيضاً آلةً لتلعب لك بـ...

قال عدنان: معه حق، هذه هي المرة الأولى الذي يشارك في أعمال هذه اللجنة، كان يتصور أنه ذاهب إلى سيران.

قال سعيد: هي المرة الأولى والأخيرة، شو أنا حمار كي أعيدها؟ قال سيران، نعم سيران كلاب(*). يا أخي كنت أنوي التقدم لخطبة سميرة، والآن غيرْت رأيي، لست على استعداد أن أبقى كالبغل مربوطاً إلى حجر الطاحون، وطوال العمر أدور... وأدور. الأفضل أن أبقى مثل عصفور حرّ ينتقل من غصن إلى غصن، إلى أن أجتمع بفتاة لديها الإمكانيات وتخطبني.

عقّب خليل: إنتَ الصادق... سيران ضفادع... كله نقيق وشرب ماء.

تدخّل أحمد الذي أحضر عَرَبته لنقل الورق الجاهز قائلاً: الأصح، مثل سيران المشايخ... كله رفع جباب ولعب بالز...

قال عدنان: تحدَّثْ عن نفسك يا أبا الحمّامات... إنْ شاء اللّه تكون حمّاماتك كلها شرعية.

عقّب خليل: أحمد حتى في بيته يمارس العادة السرية. القضية قضية مبدأ، فهو مع تحديد النسل تجاوباً مع المصلحة الوطنية، وضد الإجهاض واستخدام موانع الحمل انطلاقاً من معتقداته الدينية.

قال أحمد: في اليوم الذي سبق قدومنا إلى القبو أخذتْ زوجتي إجازةً من عملها، وذهب الأولاد بعد المدرسة إلى بيت جدهم. وحياة شواربك... سبع مرات مارست. قل لي: عند أيّ رقم وقف عدّادُك في ذلك اليوم؟

قال خليل: كذّاب... اللّه يلعنك، اترك شاربي جانباً. لم تقل: لماذا هذه الحمامات كثيرة، ولماذا ينقص عزمك عاماً بعد عام، ولماذا يظهر عليك التعب قبل غيرك؟

قال سعيد: لا عليك... عندما نبدأ العمل في قاعة السحب سأضع في المسجّلة شريط كاسيت وردة الجزائريّة أو أصالة نصري، وعندما تعمل المسجّلة ستزداد همة العاملين جميعاً. فقد أثبتت التجارب في هولندا أنّ الأبقار تعطي كميةَ حليب أكثر عند استماعها للموسيقا.

قال خليل: لو استمعت الأبقار الهولندية إلى أصوات مطربينا لتوقفت عن إدرار الحليب بشكل نهائي.

اختنقت الضحكات، وعلت الوجوهَ حالةٌ من الهلع والارتباك عندما صاح أبو صالح في الطرف الآخر من المستودع: يا شباب... تعالوا ساعدوني... أبو حسن وقع من طوله.

هرع الجميع باتجاه أبي حسن الذي كان يلهث بصعوبة، حملوه باتجاه غرفة النوم، وعباراتٌ متفرقة تطلقها أفواههم:

ـ طلبت من أبي حسن مرات عدة ألا يشارك بفتح الورق، ولكنه يرفض الجلوس وغيرُه يعمل.

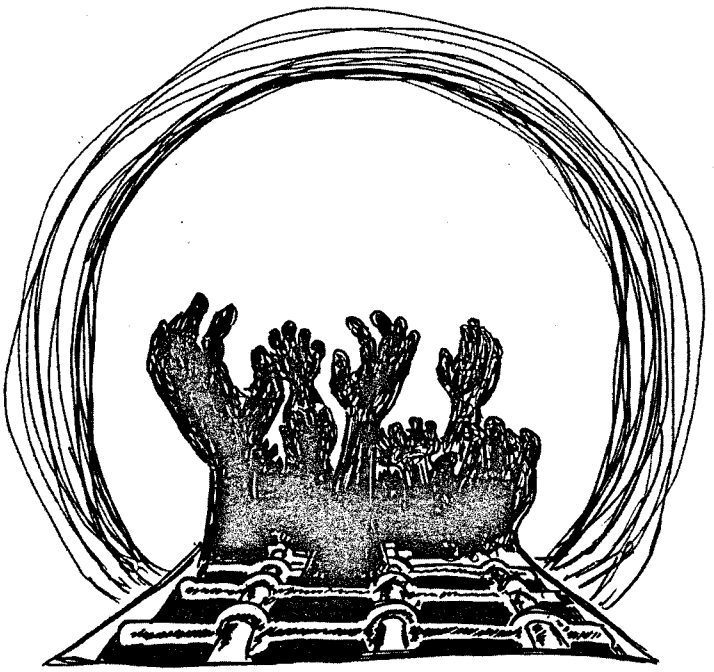

ـ يجب إخبار رئيس اللجنة ليطلب الطبيب.

ـ ذهب أبو نبيه ليعلّمه.

ـ واللّه حرام... حتى المحكومون بالإعدام، أو المؤبّد، لديهم ساعات تنفّس يومياً.

ـ حتى الحيوانات لديها ساعات راحة وساعات تنفس.

ـ في مصر يقع مبنى الامتحانات الذي تجري فيه طباعةُ الأسئلة خارج القاهرة، وهو معزول عن أيّ منطقة سكنية أو صناعية، والعاملون فيه لديهم أوقات محددة يتنزّهون فيها بالحديقة الواسعة المحيطة بالمبنى.

ـ المسؤولون في الوزارة زاروا مبنى الامتحانات في مصر، وارتأوا أنّ الحفاظ على الوضع الحالي أكثر ضمانةً

* ـ سيران: كلمة عامية شامية، بمعنى النزهة. (الآداب)

لسرية الامتحانات، خاصةً وأنّ الكثير من الموظفين يغريهم التعويض ويتدبرون الوساطات للعمل في هذه اللجنة.

- وحق ربك، أغلب هؤلاء لا يعرفون طبيعة العمل في القبو، ولن يصمدوا أكثر من يومين. هم على شاكلة سعيد؛ انظر، أصبح كالمجنون وما زلنا في يومنا الحادي والعشرين.

- لو أنهم يخصِّصون غرفة في الطابق الأول، ويسمحون لنا بالصعود إليها في ساعة محددة لرؤية النور والتنفس مثل أيّ بني آدم.

- لو كنت بني آدم لما تقدمت بطلب وتدبرت الوساطات للعمل في هذه اللجنة.

- لقمة العيش مُرّة...

- وزوجتي الغالية تريد شراء غسالة أوتوماتيك ومكيِّف مثل أختها... يلعن أختها لأخت ها العمر والحياة.

* * *

قال عدنان: بدأ العد التنازلي، مضى ثلاثة وثلاثون يوماً، وأيّ يوم يأتي لن يتكرر.

قال خليل: المهم أنّ هذا هو يوم العمل الأخير، نضع مغلفات الدفعة الأخيرة في الصناديق، وكل عام وأنتم بخير.

قال سعيد: لا يوجد أتعس مِنْ لحظات الانتظار، عليك الجلوس كالمجانين بين جدران صماء لسبعة أيام.

سأل عدنان ساخراً: ما رأيك لو يُحْضرون لك طاولة بلياردو وطاولة بينغ بونغ ودراجة ثابتة و...

قال سعيد: عندما أخرج من هنا سأذهب إلى ميّادة، أراضيها وأُعيد المياه إلى مجاريها، وإنْ كانت تكبرني بسبع سنوات... ميّادة جميلة ولديها بيت وصالون حلاقة. ربما تقولون إني أناني وانتهازي، واللّه أحب سميرة، لكن الحب شيء... وطاحونة الحياة شيء آخر... آه لو أستطيع الاستلقاء والنوم طيلة الأيام المتبقية، ثم أستيقظ فيقولون: تفضلْ اقبضْ تعويضك واخرجْ...، أفْ، أشعر بأننا عصافير مسجونة في قفص...

عقّب أحمد: أية عصافير؟ تلك في قفصها ترى النور وتتنفس، أما نحن فمسجونون ضمن جدران وأبواب صماء. ناهيك أنه ربما يتواجد في القفص ذكر وأنثى.

سأله عدنان: هل ستحطِّم رقمك القياسي عندما تذهب إلى البيت؟!

أجاب أحمد: اتفقْت معها أن ترسل الأولاد إلى بيت أختها، وَعَدْتها بعشر مرات، وحياة شواربك عشرة بعيون الشيطان!

سأله خليل: عشرة في الأسبوع أم في الشهر؟!

قال أحمد: يا عمي، جنس حواء كنز كبير وعميق، يحتاج إلى مَنْ يملك مفتاحه، ويعرف كيف يصطاد منه.

وصل أبو صالح وصفوان بعربتيهما المليئتين بالمغلفات، وبينما بدأ الشباب بنقل المغلفات إلى الصناديق سألهما أحمد: ما العمل الأول الذي ستؤديانه لدى خروجكما من القبو؟

قال أبو صالح بحسرة: واللّه يا شباب، بالي مشغول على الأولاد، تركْت أسرتي وهي في أمسّ الحاجة لوجودي معها. حدثتْ مشاجرة بين أولادي وعائلة أخرى، فتدخلت الشرطة، ولست أدري ماذا حصل في فترة غيابي...، طلبت من أخي الاجتماع بالعائلة الأخرى وعقد صلح معهم، أرجو أن تكون الأمور انتهت على خير...

قال صفوان: سأضع أغراضي في البيت، وأذهب إلى أحد الأطباء للاتفاق معه حول العملية التي سنجريها لأختي، لديها ساق أطول من الأخرى.

قال خليل: وأنا سأذهب إلى طبيب العيون لتحديد موعد لإجراء عملية الميّة الزرقا للوالدة، نظرها ضعيف جداً. لكنْ مِنْ أين النقود؟ كلفة العملية خمسة وثلاثون ألفاً.

قال عدنان: سأتوجه إلى بيت شقيقي رياض الذي بات مُقْعداً بعد أن صدمته إحدى السيارات، أشرب كأس شاي معه، وأعطيه الذي فيه النصيب.

قال أحمد: في كل عام يتوجه أبو نبيه مباشرةً إلى الحلاق، ومن ثم إلى البيت حيث تكون أم نبيه قد جهّزت الحمّام وتبدأ الحمّامات الشرعية.

قال خليل: أية حمّامات شرعية؟ الرجل تجاوز عقده السادس. حتى حبوب الڤياغرا لا تفيده، هو فقط يجلس ويغني لأم نبيه. ألم تلاحظوا أنّ صوته كان مبحوحاً عندما دخلنا القبو؟

انضمّ أبو ظافر إلى المجموعة، أتى ليستطلع إذا انتهى الشباب من نقل جميع المغلفات وإغلاق الصناديق، وليخبرهم أن يجهّزوا صناديق لمحافظة أخرى. سأله أحمد:

- بقيت أنت يا أبو ظافر... كل واحد تحدث عن أول عمل سيؤديه بعد خروجه من القبو.

قال أبو ظافر: سأصل البيت، أتصل هاتفياً بأبي حسن لمعرفة أخباره، واللّه يا جماعة بالي عنده. ثم أفعل مثلما فعل أبونا آدم مع أمنا حواء عندما طُردا من الجنة، طبعاً إذا كان الجو مناسباً؛ معلومكم الأولاد كبروا... والبيت غرفتان ومنافع.

سأل عدنان: هل من جديد في أخباره؟

قال أبو ظافر: كلا... ليس هناك جديد، فرئيس اللجنة

أخبرني أنهم أجروا له عملية، ووضعه مستقر، والآن يرتاح في بيته، لكنه ممنوع من الزيارات حتى نهاية الامتحانات.

قال أبو صالح: بعد خروجنا بأيام عدة يجب الاتفاق على موعد لزيارة أبي حسن، ليس من الضروري الجميع دفعة واحدة، يُفضّل أن نتوجه بشكل مجموعات، كل ثلاثة أو أربعة أشخاص مع بعض.

قال عدنان: واللّه لم أعرف في حياتي إنساناً أروع منه.

* * *

قال خليل: الإنسان يساوي علبة سردين، ربك ستر، لو لم يُحضروا الطبيب ليعطيني الإبرة في الوقت المناسب لكُنّا رُحْنا. لا أدري هل علبة السردين فاسدة؟ أم أن أكل السردين في هذا الحر الشديد كان السبب؟

قال عدنان: الإنسان في هذا الزمن لا يساوي فرنكاً.

ما تزال صرخات النصر والاحتجاج والقهقهات تنبعث من الغرفة المجاورة طيلة الأيام السبعة الأخيرة، حيث يلعب أبو نبيه وأخمد وسعيد وصفوان «الطُّرنيبَ» كل يوم حتى آذان الصبح. بعدها يصلّون وينامون حتى الظهيرة، ثم يصلّون الظهر ويتناولون غداءهم ويعاودون اللعب. لكنهم في ليلتهم الأخيرة لم يستطيعوا النوم، فاستمروا في اللعب.

نظر عدنان إلى ساعته عندما سمع طرقات على الباب الخارجيّ، كانت التاسعة تماماً. تمتم: إنه المحاسب ومعاون الوزير.

توجه نحو الغرفة، فتح الباب، قال: لعبكم مثل جماع القطط، الذي فوق يصرخ والتي تحت تصرخ، لا تعرف مَنْ يستلذّ ومَنْ يتألم. هيا... وصلوا.

ابتهج الجميع وصفّقوا فرحين، كانت الفرحة مزدوجة: فهي المرة الأولى التي يُفتح فيها الباب الخارجيُّ للقبو ويتسلل ضوءُ النهار على مرأى من أعينهم، والأمر الأهم هو حضور المحاسب.

معاون الوزير كان متفهماً أنّ أعضاء اللجنة بحاجة إلى قبض تعويضهم والخروج بسرعة إلى الهواء الطلق أكثر من حاجتهم إلى أيّ خطابٍ رنّان، فاكتفى ببضع كلمات شكر فيها جهودهم.

أعضاء اللجنة على ثقة بأنّ اثنين من ميكروباصات الوزارة ينتظرانهما في الخارج وسينقلانهما إلى بيوتهم. لكنّ أحداً منهم لم يتوقع تلك الورقة الملصقة على باب كل ميكرو: كانت ورقة نعي زميلهم أبي حسن الذي توفي منذ خمسة عشر يوماً!

نَدتْ من أعماق صدورهم شهقةٌ، وارتمت حقائبُهم على أرض الرصيف، ولم يستطع البعضُ حبسَ دموعٍ فرّتْ من عيونهم، ووقفوا جامدين كأعمدة مثبتة في الأرض، ثم ساد صمت عميق، تبادلوا أثناءه نظراتٍ تحمل الكثير من الانكسار والخذلان والتيه.

امتلأ الفضاء بضباب أصفر ثقيل، والأبنية المجاورة الشبيهة بالمعابد والسخية الألوان تنظر إليهم بازدراء، وأشجار الرصيف ساكنة وخائفة من سيارات الطائشين المسرعة...

بعد خمس دقائق تحرك أبو ظافر باتجاه ميكروباص الخط الشماليّ، فقال السائق: عمي أبا ظاهر... هذا الميكرو خطه: دُمّر ـ المهاجرين ـ مساكن برزة ـ حرستا. الميكرو الآخر سيمرّ من التضامن.

أجابه أبو ظافر: أعرف... أريد الذهاب إلى بيت أبي حسن في الشيخ محي الدين.

لم يتفوه بقية أعضاء اللجنة بأية كلمة، وكأنهم أشخاصٌ آليّون. وخلال ثوان صعدوا جميعاً إلى ميكروباص الخط الشماليّ.

وتوجه عدنان نحو السائق قائلاً: إلى بيت أبي حسن.

دمشق

هرر.. هرر.. هرر

تغريد الغضبان

تلك كانت المرةَ الحقيقية الثانية التي سأتمكن فيها من لقائه بعد اعترافي الخطير بأنني أحبه. فكلُّ ما سبق ذلك كان عبارةً عن لحظاتٍ مختلسةٍ عن أعين الجميع في المركز الثقافيّ الذي كنّا نداوم فيه معاً على حضور دورةٍ لتعلّم الرسم.

كان يكبرني بستة أعوام. قصير وعريض ومستطيل. وفي وجهه شيء مّا مشوّهٌ مازلت لا أدري ما هو، لكنْ في ذلك الحين لم يكن يهمني أن أعرف. بل كان يبدو لي ساحراً بذلك التشوه بالذات، أو لأقلْ بتلك الغرابة في تموضع عناصر وجهه.

إحدى صديقاتي كانت تصرّ على أنّ عينيه متسعتان أكثر مما ينبغي، وأنّ المسافة بينهما ضيقة جداً؛ وأخرى كانت تتورد خجلاً قائلةً ـ وهي تحاول بكفها إخفاءَ أسنانها الصفراء المبعثرة بفوضى واضحة في سماء حلقها ـ: «عيناه لا بأس بهما، بل إنهما جذابتان، المشكلة هي في فمه الواسع الذي قد يبتلع رأسَكِ الصغيرَ إذا قبّلكِ». أما أنا فكنتُ أنكمش في معطفي وأرتجف وأرفع حاجبيَّ نحو السماء وأسدل شفتيَّ نحو الأرض، وكأنني أشعر بتفاهة كل